حديقة الذكرى

(للكاتب الفرنسي هنري دي موباسان)

للأستاذ زكريا أحمد قليبو

قال جون بربدالي :لقد خانني الحظ قليلا .

قضيت زمنا طويلا في أيام العزوبة شاهدت فيها حربا شعواء استطعت خلالها أن أكون واسع الخطى فوق أجساد الوغى دون شفقة ولا رحمة ، وذلك دأب الطبيعة البهيمية ، فقد لمعت حقائق جلية وآلام غامضة وخيانة خفية كانت سببا في اثارة هذا العالم وبلبلة أفكاره حيث فتح هذا الباب السري على مصراعيه لتقاسي فيه ما قد قدر أن يكون . إنه لأمر جال وخطب مدلهم وداء عضال أخذ يزداد تعمقا وتشبثا فكأننا نستحق هذا الجزاء فلا وزر من لسع هذا الشوك وقد ازداد التشبث واضطرمت النيران ووضعت الحرب أوزارها هما جاثما نهذي كهذيان المسوس، وصارت الأرواح تحوم فوق الأجساد تئن وتتألم، فساد الحزن البلاد وكدنا خلاله أن نفقد وعينا واحساسنا لولا أن رضنا قلوبنا على مقاومة هذا التيار الجارف الخطير وتحطيمه .

أجل ، لقد نجحت تلك المقاومة ، وإنها لصورة باهرة من صور الحياة .

ويجول في خاطري شيئان يؤثران في احساسي العميق لولا أن العاطفة قد تخفف عني شيئا من هذا التهيج والانفعال السريع ، وسأسرد لك شيئا واحدا من هذين ، وهو حادث خيالي قد انطبع في مخيلتي وطالما يعاودني كأنه حصل لي بالأمس .

انني أتجاوز الخمسين من العمر ولقد كنت يومئذ شابا في ريعان الشباب يتنابني شيء من الأسى والأرق وكثير من أحلام الشباب التي كادت تذهب مع الرياح .

لقد شغلني ملهى كان يتألق بغادانه الحسان حيث كنت كثير التردد عليه .

وهذه الحياة على ما يكتنفها من غموض حافلة بالجمال وأي جمال، الجمال الذي لا يسير على أسلوب واحد، بل الذي يتغير باستمرار .

وفي يوم من الأيام نهضت باكرا وأخذت أتجول في حديقة الأطفال في لوزمبرغ ، كانت تلك الحديقة جد جميلة على رغم تقادم عهدها ، يكتنفها سور مزركش بديع التركيب يتوسطها صفان منفصلان على خط واحد من الأشجار التي شذبت أوراقها بانتظام وتحف بها الأزهار على أنواعها المختلفة ، تلك الأزهار التي تفتقت أكمامها كأنها تبتسم للحياة ، فحياها الندى بقطرات انتثرت عليها كأنها اللماس لمعانا ، فيالها من حديقة غناء يطيب التنزه فيها والجلوس تحت ظلال أفنانها ، وكان أحد أركانها يغص بخلايا النحل المصنوعة من القش والتي تنفصل عن بعضها بمسافات متباينة حيث تنفذ الشمس من ثقوبها الصغيرة وبعطر أريجها بجميع أرجاء الحديقة ، والنحل تحلق فوق تلك الخلايا ولها دوي مستمر، وعملها يخضعون لأمر سيدتهم ساعين في أعمالهم ، وذلك مثل أعلى في منهاج الحياة .

ولشد ما دهشت لمنظر الحديقة الخلاب فصرت أختلف إليها في أغلب الأحايين وخصوصا في الصباح، وأجلس حيث يطيب لي الجلوس أطالع بعض الكتب ، فتغمرني النشوة وتدور في رأسي الأماني الحلوة التي يهفو لها قلبي الظامىء إلى رى من طمأنينة ، فأرى خلالها الوجدان اليقظ والانفعالات النفسية الجياشة بالعواطف السامية والمثل العليا ، وبينما أنا غارق في تلك الأحلام إذ رمقت خيالا يقترب من مدخل الحديقة فأدركت بأنني لست الرجل الوحيد الذي يتردد إليها، فنهضت من مكاني لأتحقق من هذا الخيال وإذا به رجل من ينتعل حذاء فضي اللون ويرتدي لباسا أحمر ضاربا إلى الصفرة قليلا ، وعلى رأسه قبعة من الصوف يبرز منها زغب كالريش ، هزيل الجسم مقطب الوجه تنم عليه أمارات الكبر ، وعيناه متوقدتان كأنهما تنظران بحذر شديد، وبيده عصا مزخرفة مقبضها من ذهب تدل على أنها تذكار قديم ، فاسترعى انتباهي ذلك المنظر ، وبدا السرور على محياي ، فاسترقت الخطى خلف

جدار تغطيه أوراق من الشجر، وأخذت أراقبه من كثب .

وحدث في صباح يوم من الأيام أن التقينا في المكان نفسه ، فقبعت تحت شجرة متسترا بأوراقها ، وقد اعتقد في نفسه أنه الوحيد في هذا المكان ، فبدأ يشير اشارات واحدة تلو الأخرى ثم عن أسرار متبارفة ، وأعقبها انحناء وقفز إلى الأمام قليلا ، ثم عاد إلى مكانه محتفظا بمركزه ، وأخذ يترنح كأنه وريقة غصن ينفخها النسيم ،فدهشت من هذا الرقص الشاذ الهزلي، ثم أعقبها بحركات قوية فوق طاقة جسمه الهزيل كأنه ألعوبة من الورق تطيرها الرياح أنى تشاء ، لا تستقر على أية حالة . فبقيت في مكاني ذاهلا من هذا الفصل المضحك أسائل نفسي عمن فقد وعيه منا أهو أم أنا ...

وسرعان ما توقف عن الرقص وتقدم وانحنى للتحية كأنه أحد الممثلين البارعين فوق المرسح ، ثم ارتد خطوات الى الوزراء وقد ارتسمت على محياه ابتسامات تعبر عن قلبه الساذج ، وأشار بيده نحو صفي الأشجار الجميلة

وبعد ذلك استأنف خطاه باهتمام، ومنذ ذلك اليوم لم أتخلف عن هذه الحديقة قط لأشاهد تمثيله العجيب حيث كان لا ينقطع عن تمرينه الخاص صباح كل يوم ، وقد حفزتني الرغبة للتعارف به ، فاندفعت إليه بالتحية قائلا أنه ليوم سعيد يا سيدي ، فرد على التحية قائلا أجل أنه ليوم سعيد حقاً ، ومنذ تلك اللحظة أصبحنا صديقين وفيين ، وعرفت قصته فقد كان الراقص الأول في الأوبرا منذ عهد لويس الخامس عشر ؛ وعصاه الجميلة كانت هبة من الكونت دي كاريمونت ، وكان عندما يتحدث عن الرقص تغمره النشوة والفرح .

وذات يوم أسر لي حاجة في نفسه ، قال . — لقد تزوجت لا كاستريس وسأحضرها معي كي تراها إذا رغبت في ذلك ، فهي لا تأتي مبكرة الى هذا المكان ، وهذه الحديقة التي تتمتع برؤيتها هي مبعث أمانينا ووحي ذكرياتنا ، وهي حديقة بعيدة العهد قل أن تشابهها حديقة أخرى .

وكثيراً ما كنت أتردد وزوجي إلى ذلك المكان في وقت الظهيرة يومياً، وفي يوم من الأيام نهضت باكراً ، وأخذت أتجول من مكان إلى آخر ومن شارع إلى شارع ، إلى أن حان وقت الظهيرة، فاستأنفت العودة إلى الحديقة المعهودة حيث الجو مثل حافل بالرقص والسرور فرأيت الحبيبين العاشقين ، امرأة مسنة ترتدي ثيابا سوداء ، وصديق الحب الذي كان له اليد الطولى في ذلك الاحتفال المهيب . وكانت تلك الراقصة لا كاستريس حيث كانت حاذقة بفن الرقص ، فهي عشيقة الملك وعظمة الأمير .

وما إن انتهى ذلك الاحتفال اتخذنا مقعداً فوق غصن شجرة جميلة ، وكان الفصل ربيعاً . فقد هب النسيم على الغصون مشبعاً بروائح الزهور المعطرة ، وأرسلت الشمس أشعتها الذهبية لتحيي تلك الزهور ، وقد انعكست أشعتها فوق ما يظللنا من أوراق الشجر نافذة من خلالها إلى وجوهنا بقع صغيرة ، بينما ثوب لا كاستريس الأسود قد تحول إلى بريق شديد حيث الجو هادىء والحديقة خالية وصوت العربات يسمع باستمرار .

قلت للراقص الأول .

ألا توضح لي شيئا عن هذا الاحتفال؟

فقال : — الاحتفال هو ملكة الرقص ورقص الملكات ، أما تعلم أن الرقص قد فقد بهاءه وجماله منذ ذلك الحين ... وصار يتمتم بعبارات غامضة لم أفهم شيئا منها . وقد اضطرب في وضعه ، ونزل عن الغصن وسارت أمامه عشيقته لا كاستريس ، فحدقت ببصري إليهما ، وأنا مضطرب النهى فاقد الاحساس والشعور ، فاعتراني الحزن لنظر ذلك الشبح المحزن ، وسبحت في فكر عميق .

فاستمرا واقفين لحظات ، وقد أتما دورة الرقص ، وأخيراً ابتسما ابتسامتهما المعروفة ، وتعانقا عناقا حاراً ، وتنهدا تنهدات عميقة ، ثم فارقتهما .

وغادرت المدينة بعد ثلاثة أيام ، ولم أعد أراهما ، فرجعت إلى باريس بعد سنين ورأيت الحديقة وقد خيم عليها الذبول ، وساءلت نفسي عن حالة هذين الزوجين الحبيبين وما كان من أمرهما بعد ذبول تلك الحديقة الغناء، هل توفيا أم لا يزالان على قيد الحياة، وهل يرقصان في مكانهما المعهود؟ ...

لقد عاودتني تلك الذكرى ، واستقرت جروحها في فؤادي، وإني لأرى فيها أغواراً عميقة لمسابح الروح التي تعبر عن خلجات نفسي ، عرفت الحياة وآمنت بأنها متاع الغرور ، وكيف ! ...

لا أستطيع القول ، ستجده مضحكا جداً بلا ريب . .

زكريا احمد قلبو

مدرس ومدير مدرسة الحكمة بفلسطين

أقصوصة رمزية :

الليـــــل ..!

للاستاذ عبد العزيز خانقاه

إرتعد الطفل خائفاً مذعوراً ، فالتصق بصدر أمه الحنون ..
فكأن معجزة حدثت فأنطقته :

— اماه ! إنني خائف ..

فأجابت الأم :

— ليس هناك ما يدعو الى الأرتياع ياصغيري ..

— وما هذا الصوت الرهيب الذي ينبعث من بعيد ؟

— انه نباح كلاب وعواء ذئاب ! !

— ولم تعوى في مثل هذا الوقت ؟

— شراسة وجوعاً ... ثم ياحبيبي ! !

— ألا تعوى في غير هذا الوقت ؟

— في الليل غالباً ...

— وفي النهار ؟

— قلما ...

— عجباً ! ! أتعلمين يا أمي العزيزة الأسباب ؟

— نحن الآن في جوف الليل ... والظلام مخيم .. فنم ..

— ولم ينطلق العواء البعيد من الكلاب والذئاب ليلا ..؟

ها أنذا أسمعه .. انه مفزع ياأماه ! ! أليس كذلك ؟

— بلى .. وان ضوء النهار الرائق يخنق الأصوات الناشزة القذرة ..

وفي الليل حين يتلبد الجو بغمائم خانقة ، ويهبط القتام .. وتعمى البصائر ووتر فظيع يصيب آذانها ، فيحلو لمثل تلك المخلوقات البغيضة أن تنبح وتعوى وتطلق صراخها المزعج ..

— وهل تأكلنا إذا خرجنا إليها ؟

— أجل .. بعد ما تنتشر في الكون الهلع وتبذره في القلوب وتزرع في النفوس القلق والزعزعة ، عند ذاك ... من الأفضل أن ترقد ياولدي !

والطفل كان فاغر الفم ، جاحظ العين ، يرمق في لهفة شديدة ، أمه وهي مسترسلة في حديثها وحين كفت عنه . . . عاد إلى تساؤله بقلب أكثر اصراراً فقال :

— ليس يأتيني الرقاد ، فالخوف قد زال بعضه من نفسي ، فحدثيني ياأماه هـــذا الحديث الشيق ! كلما جن الليل ، بل اعيديه على مسامعي ، فذلك خير وأولى من الاستغراق في النوم اللذيذ !

فضمت الأم وليدها إلى صدرها ، تمطره قبلا خالصات طافحات بالأعجاب . فقالت :

— بورك فيك ، يا بطلي الصغير . فاسمعني ، وإليك بقية الحديث ...

— كلي آذان ، فأنا مصغ بكليتي ...

— أجل .. عندما تتزعزع تلك النفوس يلج فيها الأنهيار والشلل ، فتنكفئ على وجهها عائدة ، تلوذ بالهزيمة ؛ وهي في منتصف الطريق فلا تلبث ان يغلبها الأعياء ويأكلها الهلع ... فتقبل الذئاب الضارية والكلاب الهائمة فتلتهمها وتأتي عليها في هنيهات من الزمن قصار ..

— ولكن .. أليس هناك من يقارعها ويناصبها العداء ويقف في وجه الزوبعة ؟

— بلى ، ياهذة الكبد .. بيد أن البعض منهم قد دنت آجالهم فلقوا حتفهم ، فضمتهم الأكفان والبعض الآخر ما زال يصارع في بطولة بقوة وبطش ولكنهم .. !

اراك ياأماه ، ركنت مرة أخرى إلى السكوت .. ولكن ماذا ؟ ..

— انهم يرتقبون إنجلاء الليل .. لتزول هذه الغمة ..

ـ وهل لا تزال في الليل .. ؟

ـ نعم .. إنه ليل طويل ..

ـ وهل لا ينجلي هذا الليل الكريه الأسود ؟

ـ كيف لا يابني ! فكل ليل يطل عليه فجر منير ويغمر الكون من بعده ، نهار مشرق ، عبق الشذى ! ؟

ـ ومتى ذلك ياأماه ؟ اني لفي شوق إليه لجوج ...

ـ صبراً ... نم ياصغيري ..

ـ لا ، لا ، لن أنام ، سأرتقب ذلك الفجر ياأماه ! !

عراق — كركوك عبد العزيز خانقاه